في ظلال أحزان الوطن...
عماد مغنية: الصورة الوحيدة

طلال سلمان | جريدة السفير

2008.02.14

فاض الحزن باللبنانيين فصار بحرا يجمعهم على اختلافهم في مواقفهم السياسية ويوحدهم في قلب الخطر على الوطن والدولة: كانوا يستعدون لاحياء ذكرى شهيدهم الكبير رفيق الحريري، فاذا بالحرب الاسرائيلية المفتوحة ضدهم تطاول بطلا عاش مقاوما وسقط مقاوما هو القائد الشهيد عماد مغنية.

ولسوف تتسع العاصمة بيروت، بقلبها وضواحيها، لمواكب المواطنين الذين سيحتشدون ليؤكدوا جدارتهم بوطنهم الذي كان صغيرا فكبر بشهدائه حتى صار مالئ الدنيا وشاغل الناس، وصار مثالا في الصمود والقدرة على الانجاز بشهادة مواجهته الحرب الاسرائيلية قبل عام وبعض العام، وانتزاعه حقه في الحياة.بهويته العربية وبقدرات شعبه غير المحدودة على تخطي الصعاب والمنازعات والخلافات السياسية التي تفاقمت حتى كادت تهدد وحدته وحقه في غده الأفضل.

ولن تكون المواكب متصادمة تتنازع الساحات وتتعارك بالشعارات، فالحزن الوطني النبيل يجمع ولا يفرق، ويكشف أبعاد المخاطر المصيرية...ومن كان يحتاج دليلا جديدا فقد وفر له العدو الاسرائيلي أدلة لا تدحض على أنه كان وما زال وسيبقى «العدو» وقد زادت هزيمته في حربه من اصراره على تدمير لبنان النموذج في وحدة شعبه وهي قلعة صموده ومصدر أمله في تخطي الصعاب التي فرض عليه أن يعيشها على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة.

فالحزن الوطني النبيل يجمع ولا يفرق ويؤكد أن الوحدة هي الطريق الى المستقبل الذي قدم هذا الشعب الصغير من دمائه ثمن جدارته به.

لقد جاء اغتيال «المقاوم المطلق» عماد مغنية جرس انذار ينبه من غفل من اللبنانيين الى أن الحرب الاسرائيلية لما تنته، وأن جولاتها مفتوحة بعد، وعليهم أن يستعدوا لمخاطرها بوحدتهم وبوعيهم لحقيقة أن عدوهم الاسرائيلي سيبقى عدوهم، وأنه كان ومازال وسيبقى المستفيد الأول من فرقتهم ومن اختلافاتهم التي تضعف وحدتهم وبالتالي قدرتهم على الصمود.

تكفي صورة النواب الاسرائيليين وقد انتظموا صفوفا في الكنيسة ليقدموا التهنئة ويباركوا لرئيس حكومتهم (المهزوم في لبنان) ايهود أولمرت عملية اغتيال ذلك الذي نذر نفسه للشهادة منذ نعومة أظفاره، عماد مغنية ، وليرفعوا تحياتهم الى رئيس الموساد مئير دغان.

يكفي أن يسمعوا الناطق باسم الإدارة الأميركيّة يُعلن أنّ «العالم صار مكانًا أفضل بعد اغتيال عماد مغنية... ولن نبكي عليه بعد غيابه».

يكفي أن ينتبهوا الى ما شهدت به الأعداء: المخطط الممتاز، الرأس الخلاق، كان من بين الأشد خطرا بين الذين خلقوا أبدا، كان متعذّرا اكتشافه، وبديهيّ أن تقول اسرائيل بلسان جدعون عزرا : مبارك من نفذ هذا الاغتيال!

لا يملك الكثيرون ما يقولونه في عماد مغنية، الانسان، المجاهد، المخطط، الشجاع كأقصى ما تكون الشجاعة، المقتحم، الذي لم تعرف له غير صورة يتيمة أو اثنتين على امتداد عمره الجهادي الذي تجاوز ربع قرن.

لقد ذاب هذا الفتى المتحدّر من قرية طيردبا في ضواحي صور، لأسرة فقيرة انتقلت مثل آلاف الأسر التي عزّت عليها اللقمة في جنوب الحرمان الى بعض ضواحي بيروت، واستقرت فيها الى أن هجرتها الحرب الأهلية في منتصف السبعينات.

ولأنه ابن منطقة على حدود فلسطين شهد أمله عملية التهجير الجماعي للفلسطينيين الى ديار اللجوء، فقد كان طبيعيا أن يتعاطف وأن يقترب من المقاومة الفلسطينية لقتال اسرائيل التي لن تتأخر كثيرا في تهجير أهله في الجنوب وفي احراق قراهم وتدمير أسباب الحياة فيها.

وهكذا انتسب الى «فتح» و ختير ليكون في القوة «17».

ولأن الانضمام الى المقاومة كان خياره، فانه انتسب الى «أمل» ثم الى «حزب اللّه» بعد الاجتياح الاسرائيلي 1982 الذي أخرج المقاومة الفلسطينية من لبنان.

من تلك اللحظة امتد الرباط الجهادي مكينا بينه وبين السيد حسن نصر اللّه، وظلا شريكي مصير في قلب المقاومة وقيادتها، في التخطيط وفي التنفيذ، فعاشا-مع سائر المجاهدين-الحرب الاسرائيلية على لبنان في العام 1993.

وفي العام 1996،وعاشا معا فرحة اجلاء الاحتلال في العام 2000، ثم كان قدرهما أن يعيشا معًا أيام المجد العظيم في مواجهة الحرب الاسرائيلية في تموز-آب 2006.

سيمرّ زمن طويل قبل أن تفرج المقاومة عن السّجل الحافل بالبطولات والإنجازات الخارقة للحاج عماد مغنيّة... فهذه الحركة الجهادية التي استولدها قهر الاحتلال وعجز السلطة عن مواجهته، تختلف عن سائر حركات المقاومة بأنها لا تتباهى بالبطولات الشخصية لمجاهديها، وانما تركيزها على الانجاز العظيم لفعل المقاومة كتنظيم ذي قضية، يعتمد العلم والمعرفة الدقيقة بالعدو والتخطيط القائم على المعلومات اليقينية وتراكم الخبرات اضافة الى الروح الاستشهادية.

لم يكن المجاهدون أبدًا انتحاريين.كانوا مقاتلين يعرفون عدوّهم ويتقنون فنون المواجهة معه نتيجة الدّرس والتمحيص والاستخبار الدقيق والتعرف الى أساليبه، واختراق حواجز السرية وكشف أساليب مخابراته فضلا عن أدواتها وعملائها ومصادر معلوماتها.

ولأن عماد مغنية لم يكن استعراضيا، ولم يكن ممن يتباهون بانجازاته(الشخصية).ولم يكن يطمح الى دور سياسي والى بريق الشهرة ودويها، فلقد ظل يتابع عمله بدأب وبدقة نادرين..

كان يعرف أنه منذور للشهادة، بل لعله كان «شهيدا بالولادة» ولعله لهذا استمر مقاوما مطلقا حتى النفس الأخير.

لم تعرف له صورة، لكن دوره ملأ بدويه العالم، هو الذي أثبتت الأيام أنه كان في كل مكان، وأنه اتُّهم بكل عمليّة طاولت الإسرائيليين ومن ارتضوا لأنفسهم موقع مساند الإحتلال الإسرائيليّ.

صار اسمه مصدر رعب للأعداء...الذين أعجزهم كشف ورصد حركته، فأطلقوا عليه لقب «الثعلب» وصار شبحه الأسطوري يطارد الإسرائيليين فتعجز أجهزة مخابراتهم المقتدرة والتي تتلقى العون من مختلف دوائر التجسس والمخابرات في الغرب أجمع، وان كان للأميركيين دوما دور الطليعة فيها، عن رصد مكان وجوده ومطاردته والايقاع به.

لا تفسير للأسطورة التي اسمها عماد مغنية إلا بالايمان: الايمان بقضيته، قضية وطنه وشعبه وحقه في الحرية وفي الغد الأفضل.

...وبعد ربع قرن من الجهاد سقط الفارس عن جواده.

كيف، ولماذا، وأين، ومن، وبأي أسلوب وأية خدعة، وأسئلة أخرى بلا نهاية، لأن جوابها سيتأخر، بسبب الظروف المعقدة التي اختارها لحياته، وبسبب الدقة المتناهية في تنفيذ هذه العملية الشيطانية حيث كان مستبعدا أن تقع وأن تنجح.

لقد تحول المجاهد الأسطوري الى رمز حقيقي، تضفي عليه الشهادة حالة من نور وتجعله قدوة يحتذى به في مواجهة الاحتلال والظلم والدعاية المنهجية التي تصوّر الانسان العربي محدودًا، مشغولًا بأمر الدنيا، لا يُتقن القتال ضد عدوّه، بينما هو بارع في الاقتتال الأهلي.

عماد مغنية: لكأنّما اختار موعد استشهاده، فجاء متزامنًا مع ذكرى استشهاد الرئيس رفيق الحريري، ليقدّم للبنانيين فرصة إضافية مجلّلة بدماء الشهداء للتوحّد والتفاهم على شؤون دنياهم في وطنهم الصغير.

والأمل أن يكون، اليوم، حيث ستفتح بيروت وضواحيها قلبها لجموع المحتفلين بالشهيدين، مناسبة لاستذكار ما يجمع بين اللبنانيين، وهو كل حياتهم في الحاضر والمستقبل، ونبذ ما يفرق، وهو طارئ وهزيل وقابل لأن يذهب مع الريح متى توافقوا.

ولسوف يتوافقون في ظلال شهدائم الذين منحونا شرف الحياة بكرامة.